الرقيّ والألم

الانسان ارقى ما في الارض . لم يصل الى درجته من الترقي الا بعد عناء طويل وحرب عنيفة سقطت في ساحتها ضحايا كثيرة واندثرت فيها معالم الحياة . وكل هذا لم يكن ليحصل لولا تنافر بين الاحياء والاحوال التي احاطت بها افقدها خواص التناسب والالتئام الطبيعي التي بها ترتقي وبدونها تتلاشى سواء كانت في ابسط اشكالها او في ارقى درجاتها

اجتاز الانسان شوطاً بعيداً في الترقي وخطا خطوات واسعة في ذلك الميدان الفسيح وهو لا يزال يدأب حتى ينتقل (على رأي بعض المذاهب الحديثة) من عالمه المادي الى عالم روحي محض لا فعل للمادة فيه ولا اثر لها في مقتضيات الحياة فيتسامى ويتعالى روحاً لا جثماناً وذلك ارقى مظهر حيوي يطمح فيه الانسان

على انهُ مهما بلغ من الرقي الى الآن ومهما كان املهُ في المستقبل فان آلامهُ لم تكن لتبرحهُ ولا لتتقهقر امام تقدمهِ بل زادت معهُ على نسبة مضطردة لم تنعكس مرةً وصارت كأنها جزء حيوي من ذلك الرقي ومظهر ضروري من مظاهره الكثيرة

ان عقولنا تعي ما لم تعهِ عقول اجدادنا والسنتنا تنطق بما لم تنطق به السنتهم واعيننا تشهد ما لم يقع تحت انظارهم كذلك اجسامنا تقاسي ما لم تقاسهِ اجسامهم ونفوسنا تعاني ما لم تعانهِ نفوسهم . فكأن الطبيعة لم ترضَ ان توصلنا الى درجتنا من الرقي دون ان توهن اجسامنا وتتعب نفوسنا فرقّت فينا عواطف الالم حتى صرنا نتألم في مواضع الالم وفي غير مواضعهِ . فانتهكت قوانا واضطربت نفوسنا واعصابنا في حالة تحبّب الينا العودة الى الفطرة الانسانية حيث لا مدنية وحيث الصحة الجثمانية والراحة العقلية

يقولون ان التمدين مرض الاجتماع وهم مصيبون . اعراضهُ تلك الفروق الواسعة بين الناس وتلك الوحدة المعدومة بين الافراد . وان تلك الانّات الطويلة الصادرة من حبّات القلوب وتلك التأوهات العميقة الصادرة من اعماق الصدور وهذه الدموع الحارة المتدفقة من العيون وهذه القلوب الجامدة المطبوعة على القساوة والغلظة وتلك الصدور القذرة الموصدة على الاحقاد والضغائن كلها آثار ذلك المرض الذي اضنى جسم الانسانية وفتّ في اعضادها وجعلها تتوسل للتخلص من حالتها السيئة بما هو اسوأ منها

اعصابنا واختلاف اللون وحدهُ كافٍ لتحكيم حلقات النفور بيننا . لم تكفنا تلك الآثار

السيئة الناتجة عن الاختلافات الفكرية والفروقات المذهبية فاتخذنا من اختلاف الوانها وتباين اشكالها مواضع للبغض والنفرة

ان الانسان ليحار في تكييف هذه اخيال السيئة . بينما نرى العقل اصبح مطلقاً من قيود الحصر في المسائل العلمية اذا هو لا يزال محصوراً في دائرة ضيقة جداً من الامور الاجتماعية

توصل الانسان الى حل كثير من المسائل العلمية ووقف على حقائق عديدة افادته من الوجهة العملية . فكتبة الطبيعية والطبية مملوءة باكتشافات نافعة لم تكن لتتحقق لولا تحرير افكاره من القيود ومواصلة سعيه في العمل . ومع هذا نراه جامداً امام حالته الاجتماعية فلا نراه يتحرك لاصلاحها ووضع حد لهذه الفوضى التي تفضحها في جميع مظاهرها وهذا الارتباك الذي يعتورها في سيرها

يسير الانسان في رقيه في حلقة مفرغة بدايتها الفطرة ونهايتها الفطرة وفي وسطها كل انواع الاضطرابات والمناقضات وجميع ضروب الاوجاع والآلام . واني اراه في وسط الطريق تلعب به الحزازات المذهبية والعصبية الوطنية والاعتبارات الاخلاقية . وتحركه الجماعات بفعل تأثيرها القوي فتارة تقهره الطبيعة وطوراً نزعة الجماعة وآنا تقوده شهوات نفسه . ومهما يكن نوع المؤثرات التي تؤثر فيه والعوامل التي تعمل به فانها كلها تفقده الاستقلال الفكري والعملي وتضاعف آلامه لانها فضلاً عن كونها آلاماً في ذاتها فانها صادرة من الخارج لا يد له فيها فلا قبل له على ردها لان جسمه ليست لديه المناعة الكافية لرد هجمات الطبيعة ولانه ضعيف امام المؤثرات الخارجية القوية ضعيف امام نفسه الامارة

ظاهر ان الفطرة معناها الصحة معناها البعد عن الالم . والاسباب لا توجد الا بوجود مسبباتها فعوامل الالم كانت معدومة لما كان الانسان على الفطرة فالعقل كان على ابسط حالاته لم تكن لتعتريه الاضطرابات الناتجة عن تلاطم الآراء وتصادم الافكار . ونفسه كانت في ابقى مظاهرها لم تشوهها المطامع الدنيئة والنزعات الفاسدة . وجسمه كان في اصح حالاته لانه لم يكن درج بعد من حضن امه الطبيعة ولم يهرب منها لسكنى القصور واكتساء البدن وطبخ الطعام وكل مقتضيات التمدن

الفطرة هي الحالة الطبيعية الاولى للانسان . هي آثار الاحوال والمؤثرات التي كان يعمل الانسان فيها وتحت احكامها ايام نشأته الاولى قبل ان يتدهور في سهواة التمدن السحيقة . هي البعد عن الالم . لان الالم ليس ضرورة من ضروريات الحياة الراقية القائمة على القوانين

الطبيعية ولكن نتيجة حتمية لهذه الحياة التعسة التي يزاولها الانسان الآن تحت احكام التمدن الكاذب والارتقاء المعكوس

اسينا نتألم في الحب . الحب الذي معناهُ الوحدة والتضامن والذي هو اقوى مظهر طبيعي في الانسان وفي الطبيعة كلها . وفوق ذلك اصبح ذكر لفظة الحب شيئاً غير عادي قد تنفر منهُ الآذان وقد يعدُّ من الجرائم . ومن هذا يمكننا ان نعرف مقدار بُعد الانسان عن الفطرة وشذوذه عن الطبيعة ويمكننا ان نعلل آلامهُ الكثيرة التي يعانيها في هذا الزمان وان نفسر قول بوذا الذي لا يرى في الحياة غير التعاسة والشقاء وهو «الولادة تسبب الاحزان والشيخوخة تدعو الى الاسف والحسرة والمرض صعب من الألم ومصاحبة من لا نحب تنغص عيشتنا . كذلك فراق الاحباب يثقل الجسم ويدمي العين . فالروابط الخفية التي تربطنا بما على الارض كلها تسوق الينا الهموم والاحزان» . وقول هوميروس عن لسان أبولون «انَّا اذا دافعنا عن الانسانية وقمنا لنصرتها فان عملنا لا ترضاهُ الحكمة الالهية . والاَّ فمن هو الانسان؟ انهُ شرير بفطرتهِ . مجبول على النكاية بغيرهِ . وان الناس لمدينون للارض بارواحهم وقوتهم . وليس هناك فرق بينهم وبين تلك الاوراق التي نراها كل سنة على رؤُوس الاشجار متوجة تيجان الجمال اذا سقطت عليها الانوار ثم انعكست عنها خلتها ثغوراً تبتسم . وما يدريك لعل الغرور والتيه اصابها فجعلت تضحك على الشمس مصدر انوارها بل ومصدر حياتها . ثم نراها بعد ذلك تذبل وتجف فتحملها الرياح وتلقي بها في مجاهل الارض . والناس انانيون بطبيعتهم فتجدهم يأتون افظع الاعمال ويمثلون اقبح الروايات في تنفيذ اغراضهم النفسية وتراهم يقضون حياتهم وراء اعمال غاية في الحطة والسفالة»

لعمري ان ابواب الحياة مفتوحة لكل طارق . ونحن احرار في ان نلجها من اي باب نحب . والواقع انَّا ولجناها من باب انتهى بنا الى نقطة بعيدة جدًّا عن الفطرة الانسانية ومن ثَمَّ بعدنا عن الراحة والامان . فالسمكة التي فطرت على العيش في الماء لا تستطيعهُ الاَّ في الماء . ونحن قد بالغنا في الترف والرقَّة واثقلنا رؤُوسنا بكثير من النظريات التي توسع حلقات الانفصال بين الناس وتجعلنا ننظر الى الحياة نظرة مختلة ليس فيها معنىً من معاني التساهل والثقة . فلا غرو اذا كثُرت آلامنا وتعدَّدت اوجاعنا . وما كنا لنتدنَّى حتى نقرب من البهيمية لولا خروجنا عن الطبيعة واعوجاج نظرنا الى الحياة . فاذا كان الانسان الان متعطلًا فهذا ما ارادهُ لنفسهِ لا ما كان يجب ان يريدهُ . ولا ما كان مفطوراً عليهِ . وما عليهِ الآن الاَّ ان

يسرع الخطى حتى يصل الى الطرف الاخير من حلقة رقيه · هنالك يتمتع بالصحة البدنية والعقلية ويتحرر من قيود الاجتماع الموذية · وتزاح عن عينيه تلك النظارات المعظمة التي تبعده عن الحقائق ويبدأ يجري في عروقه دم الاخلاص والحب وتحل نفسه بميزات التسامح والثقة · فيرى مضموماً الى شركائه في الانسانية بجامعة واحدة هي ارقى الجامعات وابعدها عن موطن الالم وهي الجامعة الانسانية

مفيد محمد

الفصاحة وكتّاب العصر

(تابع ما قبله)

من اغلاطهم الصرفية قولُ بعضهم « هذا مُساس » والصواب هذا مَسُوس لانهُ لم يُنقل أساسَ والمنقول ساسَ يقال ساسَ الرعية فهي مسوسة وهو سائس وهم ساسة وسُوَّاس وأما أساسَ فهي بمعنى ساس الطعامُ وسوّس تسويساً اذا وقع فيه السوس

ومنها قولهم « المَقاس » والصواب « المَقيس » لانهُ اسم مفعول من قاسهُ يقيسهُ ولم يُنقل أقاسَ فيقال « مُقاس »

ومنها قولهم « مُشاب » اي مخلوط وهو خطأ وصوابهُ « مَشوب » لانهُ مأخوذ من « شاب » ولم ينقل اللغويون « اشاب » من الشوب حتى يجيء اسم المفعول « مُشاب » وانما نقلوا « اشاب » من الشيب

ومنها قولهم « ينعي » اي يخبر بالموت من باب ضرب والمنقول في كتب اهل اللسان انهُ من باب منع يمنع فيقال نعاهُ ينعاهُ لا نعاهُ ينعيهِ

ومنها قول بعضهم « اعقبتهُ بكذا » وهو غير وارد وانما ورد عقّبتهُ بكذا · قالوا أتى فلان خيراً فعقّب بخير منهُ

ومنها ادخال الباء على الفاعل كقول بعضهم « يعزُّ عليَّ بأن يبصروك » وعلى المبتدإ كقول بعضهم « شديدٌ عليَّ بأن القيك طريح الفراش » والصواب أن يقال « أن القيك » بدون الباء

ومن تراكيبهم المختلة « قلْ لهُ ليدخل » والصواب قلْ لهُ يدخل

ومنها قولهم « كم أنا سعيد » والصواب ان يُقال ما اسعدني والتعبير الاول اعجمي الاسلوب

ومن اغلاطهم في المفردات استعمال « ورثاء » في جمع وارث وهو يُجمع على وَرَثة ووُرَّاث